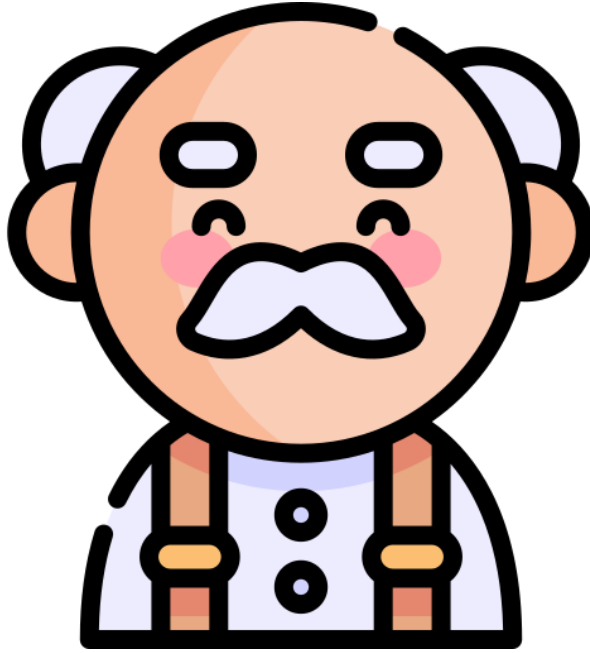


بياتي

بياتي هو أحد مقامات الموسيقى العربية.



أحمد شلبي
ماينوث، أيرلندا
30/05/2024

بياتي

بياتي هو أحد مقامات الموسيقى العربية.

نعم هذا صوت بكاء جدي، اعلم صوت بكائه جيداً. تلك هي ثاني مرة اسمعه يبكي فيها في حياتي. لا ذلك ليس صحيح، اعتقد اني متوتر قليلاً! لكنني أتذكر المرة الاولى جيداً وكأنها كانت بالأمس. كنت في الرابعة من عمري، وكنت ابيت عنده ذلك اليوم. عندها جاء اتصال هاتفي وهو يحملني بين ذراعيه. رفع جدي السماعة، ولم يحرك شفثاه ساكناً لمدة لا تزيد عن نصف دقيقة، ثم أعاد السماعة مرة اخرى الى موضعها في صمت شامل غير معهود.

باختصار قاتل لكنه بالتأكد أبعد ما يمكن أن يكون مخللاً. كان مفاد تلك المكالمة انه فقد ابنته الوحيدة، أمي، وكذلك زوجها، أبي، الذي يعتبره ايضاً ابنه الوحيد جراء حادث سيارة عند عودتهم لاصطحابي ليلاً من بيته.

وانا على ذراعيه داعبت يديه الناعمتان خدي وهو ينظر اليّ بعينين ملوؤهم الألم. لم انس تلك النظرة من عينيه قط، ثم قال لي

- معلش يا احمد يا حبيبي. بكرة قدامنا يوم طويل اوي لازم استعداد له
كويس، معلش.

لم افهم حينها ماذا يقصد بذلك الاستعداد، لكنني أتذكر جيداً ماذا فعل. جلس على أريكته وهو يحتضني بقوة وبدأ يجهش بالبكاء. كان ذلك استعداداه

الذي يقصده. بكيت لبكائه، بكينا معاً حتى نمت، وبقي يبكي وحده حتى استيقظت. كان يعلم ان مصابي اكبر بكثير من مصابه. عندما استيقظت لمست لحيته البيضاء الناعمة، كانت غارقة تماماً في الدموع. لا يزال يبكي. سألته قائلاً...

- انت بتعيط ليه يا جدو؟ انا مش بحب اشوفك وانت بتعيط. انا مش عايزك تعيط تاني خالص!

ابتسم لي وهو يمسح دموعه، ثم داعب بيده الرطبة خدي قائلاً...

- اتفقنا يا أبوحميد، مش هعيط تاني أبداً.

وقد كان. لم أر جدي يبكي بعد تلك المرة قط. ومنذ تلك اللحظة كان جدي وأبي وأمي واخي وصديقي. كان كل شيء بالنسبة لي في الحياة وكنت كذلك كل شيء بالنسبة له.

لم تكن حياتي سهلة على كل حال. تأتي احياناً تلك الأيام التي تصفعك على وجهك بقسوة لا تعلم أسبابها. اعلم أسبابها بالتأكد، ولكنني كنت صغيراً لتفهمها. وهل تعتقد انك مهما حاولت ان تفهم ستفهم؟

أيام كالأفاعي تحوم حولك باستمرار، ثم تلدغك لتستفزك للقتال. اذا اطعتها التفت حول عنقك تخنقك. تلتف أكثر وأكثر لتحكم الخناق. تتمدد كسنوات وعقود وترهق قواك حبيساً في ثنايا لحظات عابرة. ثم انه لا طاقة لنا بالقتال. انها معركة خاسرة بامتياز. حتى ذلك التعبير بالمعركة الخاسرة به تفاؤل فح

ووقع، فلا أرى أنا أي انداد هناك، ولا أرى أي ثغر قد ينبعث منه طيف
تكافؤ محتمل.

لكن جدي كان دائماً هناك. كان له قلب محبته تسع كل شيء. كان مصدر
بهجتي الدائم في ذلك العالم الغريب الذي لم يفهم يوماً ولم يرحم ساعة.

أتذكر جيداً واحداً من تلك الأيام، عدت من المدرسة مكلوماً حزيناً. رأى
جدي حزني فناداني لنلعب الكرة في حديقة المنزل ليخفف عني. كنت
غاضباً وكانت الأفاعي تتراقص من حولي. ركلت الكرة بكل قوة فارتطمت في
وجهه، انكسرت نظارته ومعها احد اسنانه. كانت لحيته غارقة تماماً في الدماء.
فزعت فور رؤيتها، شعرت بالذنب، اقتربت منه نادماً لأطمئن عليه. شعرت
حينها اني فقدت قدرتي على الكلام. لم يفعل شيئاً سوى ان ابتسم لي،
وكعادته داعبت يداه خدي وقال لي...

- ولا يهملك يا عم أحمد، بس براحة علينا كده احنا مش قدك يا عم!

ثم امسك يدي برفق قائلاً...

- يلا بينا...

ذهبنا يومها الى محل النظارات واشترينا له نظارة جديدة. ثم ذهبنا بعد ذلك
الى دكتور الاسنان الذي ركب له سن فضية لامعة بدلاً للسن المكسورة.
كان دائماً ما يمازحني قائلاً انه سيأكلني أكلاً بتلك السن الفضية عندما كان
يطاردني بالمنزل، وكنت أحياناً اتعمد التباطؤ حتى يتمكن من الإمساك بي

لاستمع بلمس شفثيه الناعمتين وهو يحاول التهامي بقلبه الحنون. كم كنت
جميلاً يا جدي!

كان جدي عاشقاً للموسيقى منذ صغره، كان لديه جرامافون قديم يستمتع
يوميّاً بالاستماع الى واحدة من اسطواناته الموسيقية عليه وهو يحتسي الشاي
على أريكته. وفي احد الأيام بعد عودتي من المدرسة، وبعد ان انتهينا من
وجبة الغداء اللذيذة التي اعدّها لنا بحب، قال لي بخفة دمه المعتادة...

- تعالى اسمعك حاجة تنضف بيها ودانك يا عيل يا صغير انت.

- سمعنا يا جدو!

كانت مقطوعة موسيقى عربية على مقام "**البياتي**"، مؤلفة على هيئة قالب
كلاسيكي يُسمى "**السماعي**"، مؤلفها عازف **قانون** مصري اسمه **إبراهيم
العريان**. جلسنا انا وجدي على اريكتنا نستمتع **للمقطوعة** ونحن نحتسي
الشاي. كانت موسيقاها جميلة حقاً عميقة التأثير على بساطتها. أدركت
يومها ان هناك سحر خاص قابع في أعماق كل ما هو بسيط. كنت اسمعها
اشعر باشتياق وولع غير مفهوم. احببتها جداً، كنا نسمعها كل يوم، لقد
صارت ثالثتنا في ذلك العالم الغريب. كان جدي يهوى الدندنة مع تلك
المقطوعة بالذات، وكان يخيل لي أنه يعزفها بصوته كأحد العازفين، بصوته
الذي يفيض دفناً وحياة.

وفي يوم نجاحي في المرحلة الإعدادية، كافئني جدي واشترى لنا تذكرتين
لحفل موسيقي على مسرح الموسيقى العربية في القاهرة. كانت المقطوعة

ضمن برنامج الحفل. كانت اول مرة اسمع فيها الموسيقى بشكل حي في حياتي. كانت اجمل كثيراً مما عهدت على السماع. رؤيتك للعازفين المتأقنين وكل منهم يحتضن آتته بفخر واخلاص تبعث بروحك أملاً بالجمال. كنت استمع الى المقطوعة واشعر بنفحات من الهواء العذب تنبثق بهدوء إلى اعماقي. شعرت بأني حمامة تطير في فضاء المسرح الرحب فوق رؤوس العازفين لتضفي على ذلك المشهد الدافئ المسحة التي يستحقها من المحبة والسلام.

كان هناك عازف يتوسط الفرقة الموسيقية يحمل آلة جميلة بيضاوية الشكل لم أرها من قبل. سألت جدي عنها في هدوء؛ فأجابني بهمس بأنها تسمى آلة العود. أسرتني الآلة طوال الحفل. كان صوتها هادئ حنون يلامس القلب ويعانق الروح.

بعد الانتهاء من الحفل وتقديم التحية الحارة لقائد الفرقة والعازفين، خرجنا انا وجدي نستنشق بعض هواء المساء العليل، كنا سعداء للغاية؛ فقررنا العودة الى البيت مشياً. اثناء سيرنا كان جدي يدندن لحن المقطوعة بصوته المبهج، قاطعته قائلاً...

- جدو، انا عايز اتعلم عود يا جدو. انا حبيت الآلة دي جداً.
- يا خبر ابيض يا عم أحمد، من بكرة نتعلم عود، غالي والطلب رخيص.

في اليوم التالي ذهبنا الى معهد الموسيقى العربية، كان احد أصدقاء جدي يعمل مدرساً هناك. استقبلنا بحفاوة وساعدنا في إتمام الأوراق المطلوبة للالتحاق بالمعهد، ثم دلنا على صانع عود معروف في القاهرة. ذهبنا اليه

واشترينا آلة لي. احتضنت آلتى الحبيبة بسعادة طوال الطريق حتى عدنا الى البيت، لقد صارت رابعتنا في ذلك العالم الغريب.

بدأت رحلتي في تعلم العود. كنت كل صباح اذهب الى المعهد لتلقي الدروس. كان مستواي في العزف يتطور يوماً بعد يوم. بعد سنتين من الالتحاق بالمعهد بدأنا في تعلم مقطوعتي المفضلة كواحدة من كلاسيكيات الموسيقى العربية. بعد إتمام تعلمها جيداً، عدت يوماً الى البيت وناديت جدي مماًزحاً إياه قائلاً...

- جدو، تعالى اسمعك حاجة تنضف بيها ودانك يا راجل يا عجوز انت!
- سمعنا يا عم أحمد!

خرجنا الى حديقة المنزل، جلس جدي وجلست بجواره واضعاً العود على فخذي وبدأت في عزف المقطوعة. لم اعزف سوى ثوانٍ من مقدمتها، لكنه قام بسرعة من مكانه وأشار اليّ بيديه ان اتوقف بعفويته قائلاً...

- عندك يا عم أحمد.. يا روقانك ويا مزاجك يا فنان.. اهدى عليا خمس دقائق.. الدخلة دي محتاجة خمسينة شاي!

دخل جدي الى المنزل وعاد مسرعاً بكوبين من الشاي ووسادة، القى بالوسادة على الأرض، ثم وضع الشاي على المنضدة قائلاً...

- اتفضل يا مايسترو!

ألقي بجسده على الأرض والوسادة تحت رأسه يستمع للمقطوعة في هدوء، ثم بدأ يدندن معي بصوته العذب بسلطنة ومزاج لم اعهد مثلهم من قبل. كان

وجمه هادئاً جميلاً للغاية. كان يتأمل السماء ويناجي احبائه الراحلين المقيمين هناك.

اما منذ أسبوع فكان حفل تخرجي من المرحلة الثانوية بالمعهد. كنت اتدرب مع أصدقائي على برنامج الحفل كل يوم منذ عدة شهور. كانت المقطوعة ضمن البرنامج المقرر للحفل. كنا في فصل الصيف وكان الحفل مساءً على المسرح المكشوف بدار الاوبرا. كان جدي يجلس في سعادة هناك وسط الحضور في الصف الأول.

وعندما بدأنا بعزف المقطوعة. التقت اعيننا وابتسمنا في صمت بليغ. كانت السعادة تكسو وجهه الذي كاد يقفز فرحاً كالأطفال. اعرف نظرات الأطفال الكبار تلك جيداً. كان يقاوم نفسه حتى لا يقوم ويلقي بجسده على الأرض امام المسرح ليتأمل النجوم ويناجي من جاورهم.

وبعد الانتهاء من الحفل طلبت من جدي ان يعود وحيداً الى البيت لأنتي سأذهب مع أصدقائي للاحتفال بتخرجنا وسأعود متأخراً.

لكنني لم أكن اعلم ان ذهابي مع اصدقائي للاحتفال سيغني ان جدي سيتلقى مكالمة مقيمة أخرى ذلك المساء مفادها اني انضمت الى ابي وامى وتركته وحيداً عارياً في ذلك العالم الفظ الغبي- الذي صرت متأكداً انه لم ولن يفهم- جراء حادث سير آخر لعين.

ها انا ذا استعد للدخول الى قبوري واسمع صوت بكائه يملأ أعماقي. ينوح كالحمام. لماذا تكذب يا جدي؟ لقد وعدتني انك لن تبكي أبداً. هل كنت

تقصد انك لن تبكي ابداً ما دمت حياً؟ لماذا تكذب؟ كذبتك سكين يذبحني.
لا استطيع سماع المزيد من كذبتك. فلتخرس لساعة حتى استقر بسلام في
قبري، ثم ابك في البيت وحدك ما استطعت.

مر عليّ يوم وانا هنا وحيداً في قبري. قبري مظلم صامت قائم، لا إحساس
بالوقت هنا. اتقلب بداخله دون جدوى، ملل مطبق باستمرار.

ولكن ما هذا؟ اني اسمع صوتاً بالخارج هناك. لا يمكنني تمييز الصوت جيداً،
لكنه يقترب ويزداد وضوحاً. انه صوت آلات موسيقية تُضبط نغماتها. اعرف
ذلك الصوت جيداً. اسمع صوت عودي أيضاً! ماذا يحدث هناك؟ هذا صوت
جدي!

بعد لحظات كانت مقطوعتي المفضلة تملأ القبر تمحو قمامته. يبدو ان جدي
جاء بأصدقائي ليعزفوا لي هذه المقطوعة لتؤنسي وحدتي. كان جدي يدندن
معهم أيضاً، لكن صوته هذه المرة كان كالذبيح، رحلت الحياة من نبراته وخيم
على صوته الحزن والموت. صوتك يقتلني يا رجل.

استمر الحال على هذا المنوال كل يوم. يأتي جدي كل صباح، او ما ارجح انه
صباحاً بالخارج، مع أصدقائي ويعزفوا لي المقطوعة عدة مرات. يدندن معهم
جدي في كل مرة. وكان الموت يزحف على صوت جدي يوماً بعد آخر.

ها هو أسبوع مر على موتي. مستلقي على جانبي مغمض العينين مواجهاً
حائط القبر، انتظر قدوم جدي واصدقائي ليعزفوا لي مقطوعتي المفضلة.

انتظرت قدومهم لساعات دون جدوى، لم أسمع احد هناك بالخارج. قلت
للغاية، لا يمكن ان ينساني جدي بهذه السرعة.

فتحت عيني فوجدت ضوءاً لامعاً فضياً خافتاً يضيء القبر. التفتت الى يميني
فوجدته مستلقياً بجواري مبتسماً لي وتلمع سنه الفضية التي التهمني بها مراراً.
يبدو ان ذلك العجوز لم يقو على الفراق.

التقت اعيننا مرة أخرى، فاتسع قبرنا فجأة. ثم داعبت يداه الناعمتان خدي
مرة أخرى كعادته، وعندها اكتسى قبرنا الجميل بدفء صوته الحنون قائلاً لي

مرحباً.

لو حابب تسمع سماعي بياتي إبراهيم العريان، الاتنين دول انا بجههم جداً
خصوصاً الأول مع فرقة الإذاعة التونسية سنة 2002.



أتمنى يعجبوكم!

Here's my own interpretation of this piece on the violin, not the oud. I'm pretty bad at both instruments anyway, but I think I'm slightly less terrible on the violin :)

If you're not used to hearing quarter tones and my sound seems off tone to you, then maybe the problem is yours! But if you are familiar with quarter tones and my sound still seems off tone, then I have to admit, it's me! Unfortunately, the previous trick doesn't work anymore :)



If you are interested in playing this piece, you can download it from here: **(Contains quarter tones!!!)**

<https://shalabycave.com/hello/bayati/samaii-bayati.pdf>